

مُلخَص

اخترت هذا الموضوع للنظر في ما إذا كانت شخصية الأمير عبد القادر ذات بعد سياسي أو ديني خاصة وأن الشخصية تعتبر من أبرز شخصيات القرن التاسع عشر باعتبار أنه قاد مقاومة كبيرة ضد الاستعمار الفرنسي للجزائر، ووصلنا إلى نتيجة هي أن الشخصية ذات بعد سياسي باعتباره مقاومًا ويحمل صفة المجاهد من ناحية، وذات بعد ديني باعتبار أنه يحمل صفة الشيخ أو الأمير وكما نعلم فإن عبارة الشيخ ذات مدلول ديني، أما الجزء الثاني من المقال فيتعلق بتلك الدولة التي كونها الأمير عبد القادر في الجنوب والجنوب الغربي الجزائري بين (١٨٣٢، ١٨٤٧) وتساءلنا إن كان فعلاً المجال الذي كونه ينطبق عليه مفهوم الدولة ووصلنا إلى نتيجة وهو أنه دولة بكل معنى الكلمة نظراً لتوفر شروط تكون الدولة في مجال الأمير عبد القادر وهي الرقعة الجغرافية والراية والمجموعة البشرية والحدود الجغرافية.

مُقَدِّمَة

مثل النصف الأول من القرن التاسع عشر لاسيما الثلاثينات منه والأربعينات حلقة هامة في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر إذ شهدت حراكًا سياسيًا وعسكريًا فرض على الباحثين مزيد الاهتمام بها، وعندما نتحدث عن تاريخ الجزائر في هذه الفترة فإننا سنمر حتمًا على شخصية جزائرية ميزت هذا القرن وفرضت الاعتراف بها عربيًا وفرنسيًا وساهمت في نحت تاريخ هذا البلد. إنها شخصية الأمير عبد القادر الذي استطاع أن يكون مجالاً جغرافيًا في الجنوب والجنوب الغربي الجزائريين بين (١٨٣٢)، (١٨٤٧م).

لقد كانت هذه الشخصية محل دراسة من قبل الباحثين العرب أو الأجانب فلا تكاد تفتح كتابًا يتناول تاريخ الجزائر في القرن التاسع عشر إلا وتجد فيه بابًا أو عنصرًا كاملاً خُصص للحديث عن الرجل، ولكن اقتصر جل الكتابات إن لم نقل كلها على الجانب العسكري في شخصيته أي الحروب التي قادها ضد الاحتلال الفرنسي فجاءت مشحونة بسرد للوقائع العسكرية، ونظرًا لأن هذا الجانب قد استوفى حقه في الدراسة رأينا الغوص في شخصية الرجل وطرح إشكالات تتعلق بالمفهوم سواء لشخصية عبد القادر أو لدولته مثل مدى إضفاء صبغة دينية أم سياسية على الرجل يعني هل يمكن الحديث عن مقاوم أم مجاهد؟ ومدى استجابة المجال الجغرافي الذي كونه في الجنوب والجنوب الغربي للجزائر لمفهوم الدولة المعرف بالألف واللام. وفي هذا الإطار نتناول مداخلتنا والتي رأينا تقسيمها إلى جزأين كبيرين الأول يتعلق بشخصية الأمير بينما يتناول الثاني دولته ولكن قبل الخوض في العمل وجب التعريف بالأمير عبد القادر.

تمهيد: (مَنْ هو عبد القادر؟)

هو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى الحسيني (عبارة موجودة في صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار) الذي بايعه سكان غرب الجزائر في ٢٧ نوفمبر ١٨٣٢ م (٣ رجب ١٢٤٨هـ).^(١) ولد



السياسي والديني في شخصية الأمير عبد القادر ومدى استجابته لمفهوم الدولة (١٨٣٢ – ١٨٤٧)

د. محمد صلاح حقّي

أستاذ مساعد التعليم العالي
جامعة القيروان
الجمهورية التونسية



الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد صلاح حقّي، السياسي والديني في شخصية الأمير عبد القادر ومدى استجابته لمفهوم الدولة (١٨٣٢ – ١٨٤٧).- دورية كان التاريخية.- العدد السادس والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٤. ص ٢١-٢٧.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية المواطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداة

خمس سنوات ثم تم السماح له فيما بعد بالسفر إلى دمشق أين عاش وتوفي ودفن في ٢٤ ماي ١٨٨٣ م.

لم يأخذ الأمير عبد القادر على عاتقه محاربة الجيش الفرنسي فحسب بل واجه أيضا عدة قبائل تمرّدت في الداخل مثل قبائل الجنوب والجنوب الشرقي في شهر آب^(٨) ١٨٣٧م التي رفضت دفع الضرائب وأعلنت العصيان وأهم القبائل نذكر الجعافرة جنوب ولاية وهران وقبائل جبال عمّورة وهوارة وقبيلة أولاد الشايب، أما في الشرق نذكر قبائل ولاية تيطري مثل الزنافة، وأولاد نائل، وأولاد مختار، وهي قبائل موجودة في المقاطعة الجنوبية الشرقية لولاية تيطري. أما قبائل الجهات الشمالية الشرقية فنذكر منها قبيلتي عمّورة والزواتنة. المنطقة الصحراوية (بلاد الزاب وعين ماضي) كانت هي الأخرى على موعد مع المواجهة مع عبد القادر، نذكر على سبيل المثال قبائل الذواود، ونواحي مجانة، وسطيف في بلاد الزاب، أما ناحية عين ماضي والأغواط فنذكر مثلاً قبيلة جبال أمور وولد البيضة.

نكتفي بهذا القدر من تعريف عبد القادر وأعماله، ونمر إلى الجزء الأول من مقالنا والمتعلق بشخصية الرجل، والحديث عن عبد القادر يطرح أكثر من سؤال خاصة فيما يتعلق بالجانبين الديني والسياسي في شخصيته لذلك سعينا إلى تجاوز أعمال وحروب الرجل والبحث في شخصيته يعني هل يمكن وصف الرجل بـ "المقاوم"، وهنا نعطيه صبغة سياسية أم بـ "المجاهد" وهنا نظفي عليه صبغة دينية، أم أنه يجمع بين الصفتين ؟

أولاً: شخصية عبد القادر بين السياسي والديني

١/١- الديني في شخصية الأمير:

إن المتتبع للكتابات التي تناولت هذه الشخصية بالدرس يلاحظ أن المؤرخين أو الكتّاب عادة ما يسبقون اسم عبد القادر بلقب "الأمير"، ولا أظن أن هذه الصفة أو اللقب كان حضورها مجانياً بل إن هناك مسكوتاً عنه في استعمالها ومصطلح الأمير هذا استعماله العرب والمسلمون إما للتعبير عن شخصية سياسية، أو عن شخصية دينية، وهذا يجعلنا ندخل في حيرة لأن الأمر تعلق بشخصية عربية - مسلمة وهي عبد القادر، هذه الحيرة ستبدها بعض الكتابات التي كانت واضحة في الحكم على شخصية الرجل فلقد أسبق مثلاً محمد بيرم الخامس في "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" اسم عبد القادر بن محي الدين الحسيني بلقب "سيدي"^(٩) ونحن في ثقافتنا العربية - الإسلامية عادةً ما نستعمل هذا المصطلح للحديث عن ولي صالح أو رجل دين كأن نقول مثلاً "سيدي أحمد الباهي"، أو "سيدي عبيد الغرياني"، أو "سيدي الشيخ"... وذلك تقديرًا لعلم الرجل أو لكراماته والعلم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هو علم الفقه.

ولعل محمد بيرم الخامس الذي عاش في القرن التاسع عشر (١٢٥٥ - ١٣٠٧ هـ / ١٨٤٠ - ١٨٨٩ م) والذي درس بجامعة الزيتونة والذي نهل من المذهبين الحنفي والمالكي وكذلك اطلاعه على عديد

في ٦ سبتمبر ١٨٠٨م بالقرب من مدينة معسكر، أمير وسلطان جزائري، رجل سياسة ومقاوم للوجود الفرنسي تعود جذوره إلى قبيلة بني يفرن البربرية،^(١٠) وهو ثالث أبناء سيدي محي الدين الشيخ الصوفي، تلقى تعليمًا متنوعًا من العلوم الدينية إلى الأدب العربي والتاريخ والفلسفة والرياضيات وعلم الفلك والطب.

زار مكة إثر رحلة حج صعبة والده سنة ١٨٢٦م وعمره آنذاك (٨) سنوات وهو ما سمح له بالاطلاع على معالم وثقافة الشرق وإثر عودته مرّ ببغداد لزيارة ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني،^(١١) ثم زارها مرة ثانية وفي طريقه مرّ بالإسكندرية والمدينة وبغداد لزيارة نفس الضريح. انظم عبد القادر ووالده سنة ١٨٣٠م إلى المقاومة الشعبية حيث عرف بشجاعته وذكائه. إثر تعرض الجزائر إلى الاحتلال الأجنبي^(١٢) طلب سكان غرب البلاد من الشيخ محي الدين بن مصطفى تزعم المقاومة لتحرير الأرض، إلا أنه اعتذر لكبر سنه ونصحهم بمبايعة ابنه عبد القادر وهو ما حصل فعلاً في (٢٧ نوفمبر ١٨٣٢م / ٠٣ رجب ١٢٤٨ هـ)^(١٣) حيث تم منحه لقب "سلطان" ومنذ ذلك الحين انخرط في "الحرب المقدسة".

وللتذكير فإن حروب عبد القادر لم تكن موجهة ضد الفرنسيين فحسب بل أيضًا ضد بعض القبائل المتمردة ففي مرحلة أولى تمكن الرجل من إجبار الفرنسيين على الاكتفاء بالبقاء في مدن مستغانم، أرزيو ووهران^(١٤) الأمر الذي دفع بالجنرال الفرنسي لويس ألكسيس (Louis Alexis Desmichels) حاكم وهران آنذاك إلى إبرام معاهدة معه سنة ١٨٣٣م، وفي ١٨٣٤م خاض الأمير معارك ضارية ضد الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال تريزل الذي عوض (Desmichels) وكان أهمها معركة ٢٢ جويلية ١٨٣٤م والتي مُني خلالها جيش الأمير بهزيمة وكذلك الشأن بالنسبة لمعركة "المقطع" التي وقعت في ٢٦ جويلية ١٨٣٥م غير أن الأمير تدارك الأمر وأجبر الفرنسيين على الانسحاب إلى مدينة أرزيو في ٠٨ أوت ١٨٣٥م وفي نفس السنة تمكن المارشال كلوزيل الذي عوض تريزل من إلحاق هزيمة بجيش عبد القادر في مدينة معسكر.

لا تحجب هذه الهزائم انتصارات حققها الأمير لعل أهمها كان في سنة ١٨٣٦م في مدينة تلمسان في معركة تافنا الشهيرة والتي انتهت بإبرام معاهدة تافنا في ٣٠ ماي ١٨٣٧م، وفي ٢١ نوفمبر ١٨٣٩م قام عبد القادر بهجوم على معسكر ثم وادي علاق في النتيجة وألحق خسائر بشرية بالجيش الفرنسي الأمر الذي أدى إلى غضب القيادة الفرنسية التي قررت الدخول في حرب إبادة فجهزت سنة ١٨٤١م حوالي ٧٨.٠٠٠ جنديًا وضابطًا بقيادة "بيجو" ونظرًا لعدم تكافؤ القوى التجأ الأمير إلى المغرب الأقصى في أكتوبر ١٨٤٣م، إلا أنه اضطر إلى العودة إلى الجزائر في سبتمبر ١٨٤٥م وذلك إثر ضغوطات تعرض لها السلطان المغربي مولاي عبد الرحمان من قبل فرنسا^(١٥) عندها وجد الأمير نفسه مضطراً إلى القبول بشروط القائد الفرنسي سنة ١٨٤٧م والتي انجر عنها سجنه في سجن "أمبواز" بفرنسا مدة

يسمح لنا بقبوله إذا عرض علينا... وإذا كنا ضعفاء بزعمكم فنحن أقوياء بالإيمان بالله الذي لا شريك له... والشهادة في سبيل الله هي مطلبنا^(١٥)

لو عدنا إلى لباس الرجل وجيشه لأكدنا ما كنا نقول فعبد القادر يرتدي برنسًا أبيضًا وشاشية حمراء ويمتطي الجواد وبحوزته سيف، أليست هذه صورة المجاهد في الميخال العربي الإسلامي؟ ألا يذكرنا ذلك بلباس قادة الغزوات؟ ألا يعني رمز البياض في الحضارة العربية - الإسلامية العفة والصفاء؟ ألا يذكرنا السيف بحقبة الانتشار الإسلامي والفتوحات؟

لنتصفح شارات الجيش فالقواد كانوا يحملون شارات كتبت عليها عبارات تدعو إلى الجهاد مستوحاة من القرآن الكريم مثل تلك التي يحملها القائد / الأغا والتي كتب عليها "أشهد أن لا إله إلا الله محمدًا رسول الله"، وأخرى على صدره تحمل عبارة "وبشّر الصالحين"، أما نائب القائد فقد كان يحمل شارات من الفضة كتب عليها "لا إله إلا الله"، أما قائد المشاة فقد كان يحمل شارات على اليمين كُتِب عليها "نصر من الله وفتح قريب"، وأخرى على اليسار حملت عبارة "الجنة تحت ظلال السيوف". قائد رماة السهام يحمل على عضده الأيمن شارة كُتِب عليها "ما رميت إذ رميت لكن الله رمى"^(١٦) وعلى صدره شارة تحمل عبارة "كل نفس ذائقة الموت"^(١٧) وتتجلى صفة المجاهد في شخصية عبد القادر في شمولية مفهوم الجهاد عنده واستشارته لفقهاء من داخل الجزائر وخارجها إذ لا يعترف مفهوم الجهاد عنده بالحدود الجغرافية، وهو ما عبر عنه الأمير عندما اتصل به (Desmechels) للمرة الثانية يطلب عقد صلح معه، فما كان منه إلا أن طلب التريث لاستشارة علماء الشريعة وفقهائها واقترح إرسال وفد إلى السلطان المغربي عبد الرحمان بن هشام ثم التوجه إلى علماء فاس والزيتونة والأزهر "لأن هؤلاء الأئمة مصابيح الظلام" على حدّ تعبيره.

ويتجلى الديني في شخصية عبد القادر في تطبيقه للشريعة الإسلامية في "دولته" إذ حرّم التعامل بالربا وحرّم قطع رأس العدو، بل إنه كان يكافئ كل من يأتي بأسير حيّ غير مهان. هناك إذن نفس ديني يتجلى واضحًا في تصرفات الرجل وفي لباسه ولباس جيشه وفي خطاباته والمبادئ التي أسس عليها دولته أو تنظيمه السياسي، ولعلّ أبرز دليل على ذلك هو راية الدولة التي أنشأها والتي تحمل عبارة "إن الدين عند الله الإسلام"، وكذلك نوعية القماش التي صنعت منها وهو الحرير المرتبط عندنا في ثقافتنا العربية الإسلامية بالدين (استعماله مثلاً لتغطية أضرحة الأولياء الصالحين وكفن للميت)، وكذلك اللونين الأبيض - رمز العفة والصفاء في الإسلام - والأخضر - رمز الجنة في مخيلتنا كعرب مسلمون - اللذان تتكوّن منهما الرّاية إضافة إلى وجود كَفّ مرسوم في الوسط يرمز إلى المبايعة والمتكون من خمسة إصبع تذكرنا بقواعد الإسلام الخمسة، والمبايعة هي في الأصل مصطلح ديني وليس سياسي لأننا في مجال السياسة نتحدث عن تزكية أو مناشدة أو انتخاب.

الكتب الدينية مثل كتب التفسير كـ"الكشاف" للزمخشري، و"تفسير البيضاوي"، و"روح البيان في تفسير القرآن" لإسماعيل حقي، وإطلاعه أيضًا على عشرات الكتب والرسائل الفقهية وكذلك حرصه على نبيل الإجازة في الطريقة القادرية نسبة لعبد القادر الجيلاني ولعل ذلك كان له تأثير على وعيه الديني رغم أن الرجل كتب في السياسة والاقتصاد وربما كان ذلك دافعًا أساسيًا لإضفاء المصبغة الدينية على شخصية عبد القادر إذ لا يمكن استعمال مصطلح "سيدي" للتعبير عن شخصية سياسية في عالمنا العربي الإسلامي هذا إذا استثنينا بعض المجتمعات العربية التي ترى في حاكمها "سيدًا".

إذا قبلنا بهذه الفرضية يمكننا القول: بأن محمد بيرم الخامس يرى في عبد القادر "مجاهدًا" وليس "مقاومًا" أي أضفى عليه صبغة دينية، ولعل ما يدعم استنتاجنا هذا تلك المصطلحات المشحونة بمعاني دينية مثل "كرامات"، و"صحبة التصرة الإلهية"^(١٨) ولعل بيرم أراد أن يجنبنا عناء التأويل فصرح برأيه عندما قال متحدًا عن تواطؤ سلطان المغرب مع السلطات الفرنسية: "...إلى أن سولت الغلطات النفسية المخالفة للديانة الإسلامية لسلطان المغرب الاتحاد مع الفرنسيين..."^(١٩) دعم هذا الرأي عبد القادر نفسه عندما أقر بأن ما يقوم به يدخل في باب الجهاد أي الدين وليس السياسة: "... ليس المقصود من الجهاد والقتال إتلاف العباد ولا تخريب البلاد ولا الرغبة في الأموال، وإنما المقصود دفع الفرد والملا إلى كلمة الحق، ولو أمكن حصول ذلك من غير قتال، حرّم القتال..."^(٢٠) أو قوله: "اللهم ثبت خطاي وقوّني على الجهاد حتّى النصر أو الاستشهاد"^(٢١) أو قوله لما زار قبيلة فليته زيارة مفاجئة متحدًا عن نفسه: "... وإنما هو رجل منكم ابن الجزائر الذي سيحكم بالعدل على هدي القرآن وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر..."^(٢٢) ألا نشتم رائحة الديني في خطاب الأمير حيث لم يستعمل مصطلحات تدل على المقاومة أي على السياسي مثل "تحرير الجزائر"، أو "دفع العدو عن الوطن"، وإنما تحدث عن جهاد وهو ما يعني أن معارضته للوجود الفرنسي في الجزائر كانت تحكمها الغيرة على الدّين وإن كان الوطن حاضرًا في باطنه وهو ما يعني أن الرجل كان مستعدًا لمواجهة أعداء الإسلام في أي مكان حتى وإن كان خارج الجزائر.

وقد كان عبد القادر حريصًا على إقحام آيات قرآنية مثل الآيات (٣٣) ثم من (٤١) إلى (٤٣) من سورة الأحزاب، وآيات من سورة النساء خاصة الآية (٤) و (٥٩)، كما اعتمد في الأحكام على الشريعة الإسلامية مثل قطع يد السارق.

عندما نتصفح ردّ الأمير على خطاب أرسله له الجنرال الفرنسي (Desmechels) والمتعلق بمطالبته بإطلاق سراح الأسرى الذين وقعوا في أيدي قواته إثر حادثة مستغانم نلاحظ أن الأمير لا يتوان لحظة في التذكير بالجهاد وبضرورة إتباع تعاليم الدين الإسلامي حيث قال: "...إن ديننا لا يسمح لنا بطلب الصلح معكم ولكنه

للقبائل، وقد كان يقوم بها مصحوبًا بحجابه وحرسه من الفرسان وقادة الأمن وهذا الموقف عبّر عنه صراحة رينيه (René Gassillot) في مقاله:

"Abd el - Kader et la nationalité Algérienne Interprétation de la chute de la régence d'Alger et des premières résistances à la conquête Française (1830 - 1839)."⁽²³⁾

وفي النهاية استطاع عبد القادر - سواء كان مجاهدًا أو مقاومًا - أن يجمع حوله قبائل متعددة ويكون مجالاً جغرافياً ظل خاضعاً لسلطته حتى سنة ١٨٤٧م اعترفت به فرنسا سعيًا في عديد الكتابات بـ "الدولة الأميرية". فكيف تكونت هذه الدولة؟ وما هو امتدادها الجغرافي؟ وهل استجابت لمفهوم الدولة المعرف بالألف واللام؟

ثانيًا: دولة الأمير عبد القادر ومدى استجابتها لمفهوم الدولة

١/٢- ظروف نشأة الدولة ومجالها:

تحدث محمد بيرم الخامس في "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" عن الأسباب التي أدت إلى خراب الجزائر^(٢٤) نتيجة الفساد الحاصل في عهد حسين باشا واستئثار فرنسا بها وكيف استطاعت هذه الأخيرة السيطرة على "القاعدة" - يقصد العاصمة - وما حولها بينما ظلت بقية الجهات خارج سيطرتها مثل الجهات الشرقية التي كانت تحت سلطة الحاج أحمد باي قسنطينة والجهات الجنوبية والغربية التي تشتمت تحت رؤساء القبائل،^(٢٥) وقد كانت إيالة الغرب تحت حكم الباي حسن الذي تخلى عن السلطة في (٧ جانفي ١٨٣١م) وخير العيش في المنفى^(٢٦) بعد سيطرة الجيش الفرنسي على ميناء المرسى الكبير في (٤ جانفي ١٨٣١م) وقام مولاي سليمان - سلطان المغرب الأقصى - باحتلال تلمسان في (٧ نوفمبر ١٨٣٠م)، وفي هذه الأثناء تم تعيين باي تونس على وهران، غير أن المغاربة انسحبوا من تلمسان في مارس ١٨٣١م نتيجة مقاومة السكان المنحدرين من آباء أتراك وأمهات جزائريات من جهة، ونتيجة الضغط الفرنسي على السلطان المغربي الذي كان يعاني من مشاكل داخلية من جهة ثانية، أما التونسيون فقد انسحبوا أيضًا بسبب عدم وجود أية سلطة تدفع رواتبهم وكذلك نتيجة استياء باي تونس من المبلغ المالي الذي فرضته عليه فرنسا مقابل حكمه لوهران.^(٢٧)

استمر الاحتلال الفرنسي للأرض فطلب سكان غرب البلاد من الشيخ عزالدّين بن مصطفى (والد عبد القادر) قيادة المعركة ضد الأجانب المتبقين، ولكنه اعتذر لكبر سنه ونصحهم بمبايعة ابنه وهو ما حصل فعلاً يوم (٢٧ نوفمبر ١٨٣٢م/ ٣ رجب ١٢٤٨هـ) وانطلق القائد الجديد في تنظيم الدولة الناشئة. واتخذ معسكر عاصمة لها وسميت هذه الدولة بالأميرية نسبة له.

وقد اتخذ حسين مؤنس هذا المنحى عندما قال: "... ولكن العصب الإسلامي في الحقيقة هو الذي قاد المقاومة... وسواء في الجزائر أو في المغرب الأقصى فإننا سنرى أن الإسلام نفسه كان هو البطل، وهو الذي حرّك النفوذ وقاد المعارك، وكان في النهاية هو الذي انتصر والمراد طبعًا هو الجزائر أو المغرب المسلم، فإن في نفس المواطن المغربي- في كل أقطار المغرب - بطولية أحيائها الإسلام وقواها وأنهضها بما فيه من روح حرّة يحسّ بها مَنْ يؤمن بالإسلام إيمانًا حَقًّا... ويتجلى هذا في سيرة الأمير عبد القادر الجزائري..."^(١٨)

٢/١- عبد القادر شخصية سياسية أم أن الديني قد امتزج بالسياسي:

إنّ ما تعرضنا إليه من تأكيد على أن عبد القادر لم يكن سوى مجاهد لا ينفي صفة المقاومة عليه أي لا يدحض حضور السياسي في شخصيته وقد أقرّ عمّار بوحوش بأن الرجل مقاوم عندما تحدث عنه وعن تكوينه: "للجيش الوطني وإنشاء المؤسسات... وتحديد الأهداف التي يرمي إلى تحقيقها من خلال تنظيم المقاومة الجزائرية..."^(١٩) ثم عندما نتمعن في القوات التي كوّنّها عبد القادر نلاحظ أنها ذات صبغة سياسية وليست دينية إذ عادة ما يلتزم المجاهد بمجموعة صغيرة تتخذ من الجبال مركزًا لها معتمدة على الإغارة وهو ما لم نلاحظه في قوات الأمير بل إن هذا الأخير قسّم قواته إلى كتائب وسرايا وفرق حيث نجد أربعة فرق: خيالة، مشاة، مدفعية، رماة وسهام وهو ما يدلّ على أنها المقاومة العنصرية المنظمة ولكنها مشحونة بنفس ديني ولعل هذا ما يجعلنا نتحدث عن المزج بين الديني والسياسي في شخصية الأمير إذ عندما خطب في الناس إثر تواطؤ قبائل الزمالة والدوائر مع الجنرال الفرنسي تريزيل ردّد عبارتي "المقاومة"، و"الجهاد" في نفس الوقت: "أيها المسلمون قد قررنا العودة إلى المقاومة المسلحة فهلّموا جميعًا إلى الجهاد، ومن قتل منا قضى شهيدًا، ومن بقي حيًا نال العزّ وثواب الجهاد".^(٢٠)

وفي الحقيقة؛ فإن استعمال هذه المفاهيم الدينية مثل "الجهاد"، و"القتال" وتطعيمها أحيانًا بمصطلحات من شأنها أن تقوي المقاومة مثل "دخول الجنة" واستعمال آيات قرآنية كلها من أجل شحذ العزائم وتقوية المقاومة وكسب الأنصار، وهذا ما أقدمت عليه بعض البلدان التي قاومت الاستعمار ليس فقط الإسلامية، بل أيضًا غير الإسلامية إذ عادة ما يلازم الديني الدنيوي وعادة ما يستغل الدين لخدمة المقاومة وهنا ربّما يتلزم الجانب الجهادي مع جانب المقاومة وهو أمر ذكرته بدريعة الحسني التي رأت أنه لا اختلاف بين "الجهاد"، و"المقاومة".^(٢١)

وعموماً عندما نتتبع تاريخ عبد القادر ومسيرته نلمس ازدواجية بين الجهاد والمقاومة أي بين الديني والسياسي، فالسياسي نلمسه في دعوته لأعضاء مجلس الشورى للاجتماع بعد تأسيس الدولة في شوال^(٢٢) سنة ١٢٤٨م وفي بحثه إمكانية القيام بزيارات مفاجئة

٢/٢ - مجال الدّولة الأميريّة:

كان تحديد محمد بيرم الخامس لهذه الدولة عامّاً، حيث يقول إنها الجهات الجنوبية والغربية من البلاد،^(٢٨) مكتفياً بذكر عاصمتها وهي معسكر، ولقد حددها عمار بوحوش بثمانية مقاطعات أقيمت على أسس فيدرالية وكل مقاطعة يترأسها خليفة للأمير^(٢٩) وهذه المقاطعات هي: (تلمسان - معسكر - مليانة - التيطري - مجانية - بسكرة - برج حمزة - المنطقة الغربية من الصحراء) تمدّ الدولة الناشئة على خط طولي من الحدود المغربية غرباً إلى مسافة غير بعيدة عن الحدود التونسية شرقاً، ثم تتجه نحو الصحراء جنوباً،^(٣٠) والمتّبع أيضاً في تركّز هذه المدن يلاحظ أن فيها مدناً ساحلية تفتّح على البحر، ومدناً صحراوية، وكل المدن تمرّ منها طرقاً تجارية.

لماذا اتخذ الأمير مدينة معسكر عاصمة لدولته؟

تقع مدينة معسكر كما هو مبين في الخريطة السابقة في أقصى غرب الجزائر بالقرب من الحدود المغربية، ويبدو أن اختيارها لم يكن مجانياً باعتبار أن الرجل تربطه علاقة طيبة بالسلطان المغربي قبل أن ينقلب عليه، فالحظوة التي يتمتع بها الأمير عند المغاربة هي التي دفعته - على ما يبدو - إلى اختيار مدينة قريبة من الحدود المغربية حتى تظل في حماية السلطان وقت المحن، أو ربما حتى يستطيع مؤسسها التمتع بإعانة المغرب بسهولة بعيداً عن الرقابة الفرنسية، هذا علاوة على أنها تربط بين المدن الساحلية والمدن الصحراوية وبالتالي فهي تلعب دوراً هاماً في التجارة وتمرّ بها الطرقات التجارية الحيوية والقوافل.

عموماً؛ إذا استثنينا مدينة وهران فإن الجزائر انقسمت إلى جزئين أو إلى "دولتين": جزء شرقي تحت الاحتلال الفرنسي وجزء غربي - جنوبي تحت سيطرة عبد القادر، أما سيطرة فرنسا على الجزء الساحلي من الجزائر فهو عادة اتبعتها السّلط الفرنسية في كافة المستعمرات تقريباً وربما ذلك ناتج عن سهولة إخضاع هذا النوع من المناطق نظراً لطبيعة تضاريسها التي عادة ما تنعدم فيها الجبال القادرة على حماية الرافضين للاحتلال.

٣/٢ - الدّولة الأميريّة: (دولة أم مجرد ردة فعل)

قبل كل شيء ما مفهوم الدّولة؟

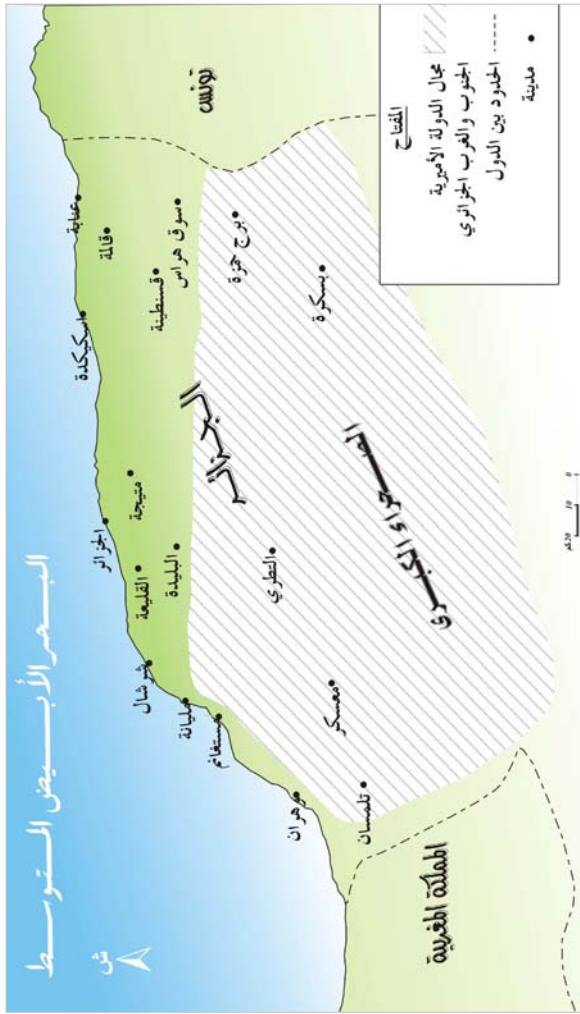
لئن تعددت مفاهيم الدولة فإنها التقت كلها حول التعريف الفلسفي لها، فالدولة حسب ج. بيردو^(٣١) (G. Burdeau) بما هي واقع هي جملة الحكام والهيئات والنظم والقوانين والمؤسسات والتشريعات، هي الجنسية، هي الأرض، الشعب، الحدود... كما قدمها توماس هوبز^(٣٢) على أنها وسيلة لضمان السلام، وهي شكل من أشكال السلطة تتجسد في السلطة السياسية حسب ميشال فوكو،^(٣٣) وتستوجب هذه السلطة وجود شعب كي تُمارس عليه. بعد هذا التعريف هناك سؤال يطرح نفسه وهو: هل تنطبق هذه التعريفات على ذلك المجال الذي كونه عبد القادر في الجنوب والجنوب الغربي للبلاد؟

تحدث محمد بيرم الخامس في مؤلفه "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" عن دولة الأمير عبد القادر ولكن بأسلوب غامض حيث استعمل عبارة "البيعة" - وهنا يُحيلنا على الإمارة الإسلامية - عندما ذكر أن الجهات الغربية والجنوبية أجمعت على مبايعة الأمير عبد القادر،^(٣٤) وبهذا يكون الرجل قد حدد لنا المجال الجغرافي لهذه "الدولة"، أو هذا التنظيم السياسي دون أن يبين إن كنا إزاء دولة أم مجرد ردة فعل^(٣٥) ولكنه تحدث على وجود المؤسسات والمجموعة البشرية التي تقطن هذا المجال والتي "أجمعت على مبايعة عبد القادر"، بل إنه -أي بيرم الخامس- استعمل عبارة "حكومة"، عندما تحدث على ضرب السّكة^(٣٦) وتذكر بديعة الحسني أن الأمير قام بإنشاء الدواوين مثل ديوان الإنشاء والتعمير والإدارات المركزية وقسم البلاد -تقصد الجزء الغربي والجنوبي- إلى ثلاثة مقاطعات والمقاطعات إلى دوائر، كما أشارت إلى وجود تنظيمات إدارية وقضائية واقتصادية وعسكرية حتى أنها أطلقت عبارة "فيدرالية" على الدّولة الأميريّة،^(٣٧) بل إن عمار بوحوش لم يتردد في استعمال مصطلح "دولة".^(٣٨)

من خلال ما تقدم يتبين لنا؛ أن مقومات الدولة موجودة وهي المقومات الجغرافية والتنظيمية والسيادة، والملاحظ أن هذه الدولة قامت على مبادئ "ديمقراطية" مستمدة من الشريعة الإسلامية وهو أمر عادةً ما يلجأ إليه الأمير حيث اعتمد مبدأ "التصويت" في اتخاذ القرارات. وجود الراية هو علامة من علامات الدولة، وراية الدولة الأميريّة هي من الحرير الأبيض والأخضر خُذف منها اللون الأحمر حتى لا تكون مطابقة للراية العثمانية،^(٣٩) ولعل في ذلك إشارة إلى استقلالية دولته عن الدولة العثمانية، رسم وسط هذه الراية كرمز إلى المبايعة، كما قام بإنشاء مجلس للشورى. وللتدليل أكثر على مظاهر الدولة تقول بديعة الحسني: أن القوانين بلغت أربعاً وعشرين ولها ملحقات بنفس العدد تتضمن تحديد المراتب، والملابس، والرواتب للقادة والجنود، والأطباء والممرضين، ورواتب السياس والبيطريين الذين يشرفون على صحة الخيول وغذائها والقضاة ورواتب حملة الراية والميدانيين.

نأتي الآن إلى مسألة الاعتراف بهذه الدّولة من قبل فرنسا التي كانت تسيطر على الجزء الشرقي من الجزائر، فبخصوص هذه المسألة تشير المصادر والمراجع إلى تعامل الجنرال (Desmechels) - ممثل القوات الفرنسية في الجزائر - مع الأمير عبد القادر وقبوله بالأمر الواقع، وإن كان ذلك إلى حين وهو ما يعني الاعتراف - ولو ضمناً - بدولته حتى أننا أصبحنا إزاء دولتين واحدة فرنسية وتتكون من مستغانم وأزرو وهران، وثانية أميرية في الجنوب والجنوب الغربي الجزائريين وهو ما يبينه الخطاب الذي أرسله (Desmechels) إلى عبد القادر إثر واقعة مستغانم التي احتلها فرنسا كردّ فعل على حصار وهران من قبل الجيش الأميري وكان ذلك في أول كانون الثاني ١٨٣٣م والتي جاء فيها ما يلي: "إلى سمو الأمير، إن واجبي الإنساني ومركزي جعلاني أتصل بكم وأطلب

الملاحق:



خريطة رقم (١)

مجال الدولة الأميرية أثناء معاهدة تافنا

٣٠ مايو ١٨٣٧ م

المصدر: أنجزت الخريطة استناداً إلى المعلومات الواردة في: بيرم الخامس (محمد)، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، دار صادر، بيروت، ط ١، ج ٤، المطبعة الإعلامية بمصر، ١٣٠٢ هـ

إطلاق سراح الأسرى من جنودنا الذين كانوا يقومون بحراسة عدد من العرب كانوا في طريقهم إلى منازلهم، وإذا بكمين يخرج إليهم ويقاتلهم. ولا أظن أن قوة شهامتكم تأبى تسريحهم..."^(٤١)

نلاحظ أن هذا الخطاب موجه إلى جهة رسمية معترف بها، ثم ألا تعتبر المعاهدات التي كانت تبرم بين الأمير والفرنسيين دليلاً على وجود دولة إذ عادة ما تبرم المعاهدات بين دول مستقلة؟ ففي الصلح الذي أبرم بين الجنرال (Desmechels) والأمير عبد القادر سنة ١٨٣٣م تعهد الطرفان برد الأسرى والتزم كل طرف بإرجاع كل من يفرض إلى الطرف الآخر،^(٤٢) هذا إضافة إلى معاهدة تافنا في (٣٠ ماي ١٨٣٧م) بين الفريقين والتي جاءت إثر إلحاق الأمير هزيمة بالفرنسيين في معركة تافنا سنة ١٨٣٦م وقد اعترفت فرنسا - مجبرة- بالدولة الأميرية من خلال تعيين وكيل لها في عاصمة الدولة الأميرية معسكر.

خاتمة

في الختام نستطيع القول؛ بأن عبد القادر قد جمع بين صفتي "المجاهد"، و"المقاوم"، ولعل ذلك يعود إلى منشأ الرجل إذ هو من بلد عربي - مسلم عادةً ما يمتزج فيه الديني بالسياسي عندما يتعلق الأمر بمحاولة تحرير البلاد من الهيمنة الأجنبية، وهي طريقة اعتمدها زعماء حركة التحرير فيما بعد إذ عادةً ما يسعون إلى استعمال القرآن الكريم في خطاباتهم لشحن عزائم المقاومين، كالتذكير بالآيات التي تحث على الجهاد أو تلك التي تبشر بالجنة. ومهما يكن؛ فإن عبد القادر استطاع تكوين دولة بالمفهوم العصري للكلمة أطلق عليها البعض مصطلح "الأميرية"، وأن يفرض اعتراف فرنسا بها وذلك من خلال قبولها بممثل للأمير في المجال الذي تسيطر عليه، إلا أن هذه الدولة لم تستطع الصمود إذ سرعان ما تم القضاء عليها سنة ١٨٤٧م وفر مؤسسها عبد القادر إلى المغرب، ثم سجن مدة خمس سنوات في فرنسا ليسافر بعدها إلى دمشق أين قضى بقية حياته ثم توفي. وبنهاية الدولة الأميرية دخلت الجزائر في طور الاحتلال الكلي مما سيولد مقاومة شعبية ستستمر حتى استقلال البلاد في ١٩٦٢م.

الهوامش:

- (١٨) مؤنس (حسين)، تاريخ المغرب وحضارته قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٣، ص ٣٨٠.
- (١٩) بوحوش (عمار)، التاريخ السياسي للجزائر... مرس، ص ١٠٩.
- (٢٠) الحسني الجزائري (بديعة)، ما بدلوا تبديلا... مرس، ص ٨٠.
- (٢١) نفس المرجع، ص ٦.
- (٢٢) أكتوبر في السنة الميلادية / تشرين الأول في السنة السريانية: البدوي (محمد)، المنهجية في البحوث... مرس، ص ٣٥.
- (23) René Gassillot, Abd el - Kader et la nationalité Algérienne Interprétation de la chute de la régence d'Alger et des premières résistances à la conquête Française (1830 - 1839), **Revue Historique**, 89ème Année, Tom CCXXXIII, 1965, p 351.
- (٢٤) بيرم الخامس (محمد)، صفوة الاعتبار... مص س، ج ٤، ص ١٠. أنظر أيضا مؤنس (حسين)، تاريخ المغرب وحضارته... مص س، ج ٢، ص ١١ و ١١١، ص ٣٨٠.
- (٢٥) بيرم الخامس (محمد)، صفوة الاعتبار... مص س.
- (٢٦) الإسكندرية ثم مكة.
- (٢٧) صفوة الاعتبار... مص س، ج ٤، ص ٤.
- (٢٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٠.
- (٢٩) بوحوش (عمار)، التاريخ السياسي للجزائر... مرس، ص ١٠٩.
- (٣٠) الحسني الجزائري (بديعة)، وما بدلوا تبديلا... مرس، ص ٣٤.
- (٣١) مفكر سياسي فرنسي معاصر.
- (٣٢) توماس هوبز: فيلسوف أنقليزي (١٥٨٨ - ١٦٧٩).
- (٣٣) ميشال فوكو: فيلسوف فرنسي (١٩٢٦ - ١٩٨٤).
- (٣٤) بيرم الخامس (محمد)، صفوة الاعتبار... مص س، ج ٤، ص ١٠.
- (٣٥) يذكر محمد بيرم الخامس الحدود وهي: الجهات الغربية والجنوبية الغربية للجزائر.
- (٣٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٠.
- (٣٧) الأميرة (بديعة الحسني)، وما بدلوا تبديلا... مرس، ص ٣٤.
- (٣٨) بوحوش (عمار)، التاريخ السياسي للجزائر... مرس، ص ١٠٩.
- (٣٩) حرب (أديب)، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٨ - ١٨٤٧)، ج ٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٣م، ص ٤١.
- (٤٠) كانون الثاني في السنة السريانية وهي سنة شمسية يقابلها شهر جانفي (يناير) في السنة الميلادية وهي الأخرى شمسية وشهر محرم في السنة الهجرية وهي قمرية: البدوي (محمد)، المنهجية في البحوث والدراسات الأدبية، مرس، ص ٣٥.
- (٤١) الأميرة (بديعة الحسني)، وما بدلوا تبديلا... مرس، ص ٥٣.
- (٤٢) بوحوش (عمار)، التاريخ السياسي للجزائر... مرس، ج ٤، ص ١١١.

- (١) بيرم الخامس (محمد)، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، دار صادر، بيروت، طبعة أولى بالمطبعة الإعلامية بمصر سنة ١٣٠٣ هـ، ٥ أجزاء، طبع بيرم الأجزاء الأربعة الأولى في مطبعته "المطبعة الإعلامية" ١٣٠٢ و ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٥م بمصر بينما تكفل ابنه بطبع الجزء الخامس في مطبعة "المقتطف" سنة (١٣١١ هـ / ١٨٩٣ م - ١٨٩٤م)، يتكون من ٧٤٦ صفحة لم نستطع قياس حجمها نظرًا لأننا اعتمدنا على نسخ ج ٤، ص ١٠.
- (٢) أنترنات.
- (٣) عبد القادر الجيلاني: (٤٧١ هـ / ١٠٧٨م - ٥٦١ هـ / ١١٦٦م)، هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، ولد في جيلان بين بغداد وواسط، فقيه حنبلي متصوف، درس على أيدي شيوخ العلم والتصوف مثل التبريزي وبرز للجميع بعد الخمسين من عمره، متضلّع من الفقه والتفسير، أسلم على يده كثير من اليهود والنصارى وكان يأكل من عمل يده، انتقد سياسة الخليفة، دعا إلى جهاد الشرك المستمر وهو النفس، انتصب للتدريس والإفتاء في بغداد، مؤسس الطريقة القادرية. من مؤلفاته "الفتح الرباني" وله أيضًا "فتوح الغيب": القاسي (فتحي)، الشيخ محمد بيرم الخامس حياته وفكره الإصلاحي، تونس، وزارة الثقافة والإعلام، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقق والدراسات، بيت الحكمة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ج ٤، ص ٢ - ١٧٢.
- (٤) احتلال السلطان المغربي مولاي سليمان تلمسان في ٧ نوفمبر ١٨٣٠م، احتلال فرنسا لميناء المرسى الكبير في ٤ جانفي ١٨٣١م، تعيين الجنرال كلوزيل لباي تونس على وهران مقابل أموال يدفعها إلى فرنسا.
- (٥) بوحوش (عمار)، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية ١٩٦٢، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص ١٠٨ - ١٠٩. أنظر أيضًا بيرم الخامس (محمد)، صفوة الاعتبار... مص س، ج ٤، ص ١٠.
- (٦) بيرم الخامس (محمد)، صفوة الاعتبار... مص س، ج ٤، ص ١٠.
- (٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٠.
- (٨) أوت (أغسطس) في السنة الميلادية / شعبان في السنة الهجرية مع مراعاة تغير الأشهر في السنة الهجرية. البدوي (محمد)، المنهجية في البحوث والدراسات الأدبية، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس، ١٩٩٨، ص ٣٥.
- (٩) بيرم الخامس (محمد)، صفوة الاعتبار... مص س، ج ٤، ص ١٠.
- (١٠) بيرم الخامس (محمد)، صفوة الاعتبار... مص س، ج ٤، ص ١٠.
- (١١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٠.
- (١٢) المقرض الحاد لقطع منتقص دين الإسلام بالكفر والإلحاد، ص ٣٥٥، ورد في: الحسني الجزائري (بديعة)، وما بدلوا تبديلا تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ودولته وهجرته، دمشق، ط ١، سؤال ١٤٢٣ هـ / كانون الأول ٢٠٠٢م، ص ٦.
- (١٣) الحسني الجزائري (بديعة)، وما بدلوا تبديلا... مرس، ص ٣٦.
- (١٤) المرجع نفسه، ص ٣٦.
- (١٥) الحسني الجزائري (بديعة)، وما بدلوا تبديلا... مرس، ص ٥٤.
- (١٦) سورة الأنفال: الآية (١٧).
- (١٧) وردت هذه الآية في عديد السور نذكر منها: * سورة الأنبياء: "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلَّوْكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فِئْتَةً وَاللَّيْنَا تُرْجَعُونَ": الآية (٣٥). * سورة العنكبوت: "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ": الآية (٥٧). * سورة آل عمران: "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أَجُوزَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ": الآية (١٨٥).